ضَرُورَةُ فَهْمِ وتَدَبُّرِ القُرآنِ (محاولة فهم أم تفسير)!

أولًا: هُنَاك فرقٌ شَاسِعٌ كبير بين التدبُّر والتفسير:

إنَّ تفسيرَ القرآنِ العظيم ليس مِن المَهام التي يستطيع أمثالُنا أداء حقِّها، بل لا بُدَّ مِن علماء متخصصين، أحاطوا علمًا بأدواتِ التفسير وعلومِه، مِن معرفة (علم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه والأحاديث المُبيِّنة لتفسير المُجمل والمُبهَم،... إلخ)، فلا ينبغي للذين لم يصلوا بَعدُ إلى المستوى العالي مِن النُّضج العلمي، أن يدخلوا مِضمار التفسير، فلا ينبغي للشباب -غير المُطَّلِع على هذه الأدوات والمسائل والأصول- اقتحام ميدان تفسير القرآن العظيم، وإذا حَدَثَ أن دَخَلَ أمثالُ هؤلاءِ وأصبحَ يُفسِّر القرآنَ وفقَ رأيه، فلا ينبغي لشبابِ المسلمين أن يلتفتوا إليهم، أو يقيموا لآرائهم وزنًا، فَعِلمُ التفسير له رجالُه ومتخصِّصوه.

أمّـا التدَبُّـر فقد أمَرَ اللـهُ به كلَّ النَّـاس، فهو فريضـةٌ غائبةٌ عند التـلاوة، فالتلاوةُ تكون لأجل التزكيـة والتعليم، تَعلُّم هذا الكتاب، وتَعلُّـم الحكمة أي: السُّـنَّة التي هي مِن هذا الكتـاب أيضًا ومُكمِّلَةٌ ومُفصِّلَـةٌ لـه، وهدفُ تلاوةِ القرآنِ على البشـر؛ لِيُزكُّوا أنفسَـهم بِه، ويُنقذُوهـا مِـن أوسـاخِ الجاهِليَّـةِ ويُخرجُوها مِن ظُلمَـاتِ الوثنيَّة، حتـى تتمكَّنَ أرواحُهم وقلوبُهم بَعد ذلـك؛ أنْ تَفهَمَ وتَتَدَبَّرَ وتَعمَلَ بالكتاب والحكمة.

فهـل يكفـي أو نكتفـي أن نَضَعَ القـرآنَ في جيوبنـا؟! أو هل يكفـي أو نكتفـي أن نُرَتِّـلَ القرآن أو نسـمع ترتيلَه بصوتٍ حَسَـنٍ ونتلـذَّذ به فقـط؟! كلَّا واللـه، بل هناك هدفٌ أسـمى، نعـم.. إنَّه التدبُّر، فلا بُـدَّ مِن التدبُّر والتفكُّر والتأمُّل في القرآن الكريم الذي هو كلامُ المَلِكِ العظيم، والتدبُّر يؤدي إلى العمل، والعملُ يُفضي بنـا إلى الهدايةِ والصَّلاح، والقرآنُ يدعونا في مواضع عديدة جدًّا إلى ذلك.

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فـي هذه الآيـة أوضحَ اللهُ تعالى أنَّ الهدفَ الأسـاس مِـن إنزال القـرآن؛ هـو التدبُّر والتفكُّـر والتذكُّـر، لا مُجرد التلاوة فقط دونَ فهم معاني ما يُتْلى على عِظَمِ أجرِ التلاوة.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد:٢٤].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الله تعالى آمرًا عبادَه بتدبُّرِ القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراضِ عنه وعن تفهُّمِ معانيه المُحكَمَة وألفاظِه البليغة، فهذا أمر صريح بالتدبُّر والأمر يُفيد الوجوب.

وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨]، **قال الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: (الأماني: التلاوة) أي: لا عِلمَ لهم إلَّا مجرَّد التلاوة دونَ تفهُّم وتدبُّر»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذمَّ اللهُ المُحرِّفينَ لكتابه والأُمِّيِّين الذين لا يعلمون منه إلَّا مجرَّد التلاوة وهي الأماني»[٢].

ويقول السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيره: ومعنى تدبُّر آياتِ الله:**

«التأمُّل في معانيه، وتحدِيقُ الفكر فيه، وفي مبادِئه وعواقِبه، ولوازمِ ذلك، فإنَّ تدبُّرَ كتاب الله مِفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستَنتَج كل خير وتُستَخرج منه جميع العلوم، وبه يَزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنَّه يُعرِّف بالربِّ المعبود، وما له مِن

(١) فتح القدير.
(٢) بدائع التفسير.

صفـاتِ الكمَال؛ وما يُنزَّه عنه مِن سـمات النَّقـص، ويُعرِّف الطريق الموصِّلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدُوم عليه، ويُعرِّف العدو الـذي هو العـدو على الحقيقـة، والطريـق الموصِّلة إلـى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكُلما ازداد العبد تأمُّـلًا فيه ازداد علمًا وعمـلًا وبصيرةً، لذلك أمـرَ اللهُ بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنَّه هو المقصود بإنزال القرآن».

فالتَدَبُّـر كما قـال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحدِيـقُ ناظرِ القلب إلى معانِيه، وجَمعُ الفكر على تدبُّرِه وتَعقُّلِه»[١].

وقيل في معناه: «هو التفكُّرُ الشَّامِلُ الواصِلُ إلى أواخِرِ دَلالاتِ الكَلِمِ ومَرَامِيه البعيدة»[٢].

ولـذا اعتنـى بـه صَحْـبُ الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتابِعوهـم بإحسـان؛ تـلاوةً وحفظًـا وفهمًـا وتدبُّـرًا وعمَـلًا وبَلاغًـا، وعلـى ذلك سَـارَ سـائرُ السـلف الصالح، ومع ضَعْفِ الأمَّـة في عصورها المُتأخـرة تراجعَ الاهتمام بالقرآنِ وانحسَـر، حتى اقتصر الأمر عند غالب المسـلمين على حِفْظِه وتجويـدِه وتلاوتِه فقط، بلا تدبُّر ولا فهـم لمَعانِيه ومُرادَاتِه، وترتَّبَ علـى ذلك ترك العمل به أو التقصير

(١) نضرة النعيم.

(٢) قواعد التدبر الأمثل/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

فـي ذلك، «وقـد أنزل الله القرآن وأمَرنَا بتدبُّـره، وتكفَّل لنا بحفظِه، فانشغلنا بحفظِه وتركنا تدبُّرَه»[١].

فتَدبَّــر القرآنَ إنْ رُمْــتَ الهُدَى

فالعِلــمُ تحــتَ تَدَبُّــرِ القــرآنِ

مصطفى شيخون

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

الجمعة: ١٨ جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ

١٧ مارس ٢٠١٧م

(١) حول التربية والتعليم/ د. عبد الكريم بكار.